بطل الضياع

تأليف : بوريس بريفالوف
ترجمة : خيري حماد

« بوريس بريفالوف ، كاتب قصصي معاصر ، ولد على مقربة من بريانسك في عام ١٩٢٤ . حاول قبل نشوب الحرب عددا من المهن بعد ان انهى دراسته الثانوية ، فعمل ممثلا وطباخا ، وبائع كتب ، ودليل سياح ، وانتهى اخيرا الى العمل كمراسل حربي .

« التقى اخيرا بالكاتب السوفياتي الساخر يوجيني بيتروفه فنصحه على التحول الى الادب ، وكان اول من نشر له قصة في عام ١٩٤٢ .

« اقبلت الصحف والمجلات بعد هذا التاريخ على نشر قصصه ومقالاته وتقدماته . اصدر في عام ١٩٥٦ بالتعاون مع بوريس بيجودوف قصته الطويلة الساخرة .. « لا تمر .. »

وهذه القصة التي تتولى تعريبها اليوم هي من احدث قصصه ..

هناك من لم يعمد شيئا قط ! قد يودي التدقيق في البحث الى العثور على انسان معرق في حرصه الى الحد الذي عانه من اضاعة اي شيء مهما كان تافها طيلة حياته .. ولكن لو استطعنا العثور على مثل هذا الانسان، فجرى بنا ان نجد له متنفسا خاصا نعرضه فيه ، كشيء فريد في نوعه . لكن صديقي الملازم فيكتور سكاميكين ، الطالب في الكلية الحربية ، كان انسانا عاديا ، مثلي ومثلك . ولعل هذا هو الذي دفعني بعد ان فرغت واياه من سيارة « الباص » الى سؤاله .. ترى أين حقيبتك ؟

وتطلع فيكتور الى يديه، واخذ يقلب جيوبه وكأنه يبحث عن شيء ثم قال.. لا بد انني نسيتها في الباص .

وقلت على عجل .. ايها الابله ! اذن هلم ، فاستقل «الترام» القادم . ان «الباص» يقوم بدورة كبيرة ، قبل ان يصل الى المحطة القادمة ، التي تتجه اليها حافلة الترام راسا . وهناك ستلحق بالباص ، وتعثر على حقيبتك. هيا ، ها هو الترام قادم .. سانتظرك هنا .

وقفز فيكتور الى الحافلة ، وراح يبحث عن حقيبته .

ولم تمض عشرون دقيقة ، حتى كان يهبط من الحافلة القادمة ، عائدا الى ، وهو مشرق الوجه ، ويبادرني بقوله .. « لقد لحقت بالباص في محطة كورسك . كان يحمل رقم ٦٧٩ - وعندما صعدت الى السيارة ، وجدت حقيبتي بحذاء السائق . وبعد ان تثبت من ملكيتي لها من حرفي «ف. ا.» ، المنقوشين عليها اعادها الي ، فانتقلت الى الترام وأتيت اليك .

ـ ولكن أين الحقيبة ؟

وتطلع فيكتور الى يديه ، وقال مستسلما ـ حسنا ، لا أدري . لعلي نسيتها من جديد في حافلة الترام .

ـ ياقة .. ثم كنت تفكر يا رجل ؟

وابتسم فيكتور وقد علته الحيرة .. ثم قال ـ « قد لا تصدقني ، ولكني وانا احمل الحقيبة في يدي ، كنت افكر في «مكتب الاشياء المفقودة» . انه المكتب الذي يعثر فيه الانسان على كل مايضيعه . علم نذهب اليه ..

ـ او اوكلت اليك مهمة الاعلان عن هذا المكتب ؟

ـ لا تكن سخيفا . هيا .. ستتعلم كل شيء هناك .

ولما وصلا باب المكتب ... توقف صديقي فجأة ، فبادرته قائلا ـ ولكن .. مادا حدث ؟

وقال فيكتور وقد بان التردد في نبرات صوته .. حسنا .. انظر .. سانتظرك هنا . ولعلني ادخل بعد دقيقة او دقيقتين .

ـ ولكن لم ؟ .. قل لي ما القضية ؟

ـ انها مسئلة معقدة ـ حسنا انا لا اريد ان القى مدير المكتب .. ادخل انت وحدك .. وانظر اذا كان هناك رجل يدين يضع على راسه قبعة اسيوية «قلبقا» .. انه ثرثار كثير الكلام ... هلم ادخل .. وساشرح لك الموضوع فيما بعد ..

وفتح الباب ووجدت نفسي ادلف الى صالة صغيرة ، تعود ابوابها الزجاجية الى مستودع الاشياء الضائعة ، حيث رايت فتاة شقراء الشعر رائعة الجمال تجلس الى مكتب صغير ، وامامها عدد كبير من المظلات والمعاطف التي تحمل مختلف الالوان . وكانت الى جانبها سيدة تضع على ساعدها اشارة «مفتشي الترام» ، وهي تمد اليها يدها حاملة اشياء عدة . وقالت المفتشة . « لقد عثرنا على كل هذه المظلات والمعاطف بعد توقف المطر يا نينا ... اما يوم الخميس ، فقد عثرنا بعد تلك العاصفة المساطرة على رقم قياسي .. ثماني مظلات وخمسة معاطف » .

وقررت الا ادخل لنوى ، وان اتبع الطريقة الصحيحة في الاستكشاف ، دون ان ادع احدا يراني .. فلربما كان البدين المجهول هناك ، ولكني لا اراه .. حسنا لاصبر .. ورايت رجلا يدنو من مكتب نينا . انه شاب نحيل يضع على عينه نظارتين . . وفي يده كتاب ضخم وقال وهو يمد يده بالكتاب .. هذا هو .. وعليه اهداء المؤلف بخطه الى ـ

وقرات نينا عبارة الاهداء ، ثم نظرت الى غلاف الكتاب ، وانفجرت ضاحكة

.. وشاركتها المفتشة ضحكها .. ثم قالت .. يا له من اهداء غريب .. تعال وانظر ..

وبدأ الشاب يشرح لهما في عصبية ظاهرة ، وهو يمسك بطاقته في يده .. جاء المؤلف الذي كتب هذا الاهداء الى كليشا ، ليشهد ندوة أدبية ، الا تعرفينه .. لقد كتب عددا من قصص الحرب .. وكان من الطبيعي ان يشتري الطلبة جميع كتبه من المكاتب المجاورة ، أملا في ان يوقع عليها ، مع اهداء منه .. انه لشيء عظيم ان يحصل المرء على توقيع المؤلف ..

وهزت بيغا ورفيقتها راسيهما بالموافقة ، ومضى الشاب يقول .. ولقد تحدث الينا المؤلف عن كتبه ، ورد على اسئلتنا . وسرعان ما هجمنا عليه نطلب توقيعات على كتبنا . ورأيته انه يوقع على الكتب دون ان يتفحصها . ويعرف ما اذا كانت كتبه حقا وحالت في ذهني فكرة شيطانية .. حقا انها مكتبة ساحرة ، وسرعان ما امسكت بكتاب ليوتولستوي هذا وقدمته اليه . فوقع عليه بعد أن كتب عبارة الاهداء دون ان يتطلع الى الكتاب .. انظري ها هو قد كتب تحته .. « في ذكرى لقائنا » .

وهزت المفتشة راسها وكأنها توبخه أنها خدعة طفل ..

ورد الطالب قائلا .. « قولي ما تشائين .. على اي حال لقد سبت الكتاب في الباص ، ولولا هذا الكتب الضائع ، لضاع علي هذا الاهداء النادر، على اي حال .. الامر ، مادامت النهاية طيبة .. شكرا ..

وكانت بيغا تلقي في عصبون ذلك نظرة أخرى على التوقيع النادر ، ثم قالت .. ولكن المسئلة ليست من السلطة على النحو الذي تظن .

وصرخ الطالب وهو يقول .. الا تصدقيني .. الا تصدقين انه كتابي؟

ـ لا ، انه كتابك ، ولكن المؤلف كان يعرف ان ما يوقع عليه ليس بمؤلفه .

وقال الطالب مندهشا .. ولكن.. كيف ؟ ، وما ادراك ؟

ـ لقد عرف لعنتك .. في اي يوم كانت الندوة ؟

ـ في الثلاثين من مارس .

ـ ولكن انظر الى التاريخ الذي ارخ فيه اهداءه .. انه الاول من ابريل ، وقد وضع خطا تحت هذا التاريخ ليؤكده ، انظر .. الا تراه .

وارتبك الطالب من شدة ما عراه الخجل .. فاحمر لونه واصفر واخضر .. ثم قال .. حقا .. انك على صواب، لم الحظ هذا .. حسنا .. شكرا .. واسعدتما صباحا .. بل اسعدتما مساء .. ومضى مارا من جانبي وكأنه طائرة نفاثة .. مندفعا الى الشارع .

وتطلعت الى المرقة من جديد مغتما فرصة اعراق الفتاتين في الضحك، انني لا ارى رجلا .. سواء كان بدينا أم نحيلا .. وبات في وسعي ان انقل الى فيكتور انني ادبت المهمة على احسن ما يرام..

وقال الملازم وهو يلقاني ، وقد بان

الشك على مجياه .. لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة ؟.. اكنت تحسدث اليها ؟

كان صديقي في منتهى الصرامة في ذلك اليوم . ولم أعد أرى فيه ذلك الضابط الهادىء الوديع والمتزن الذي أعرفه .

وقلت له .. « الطريق مفتوح امامك .. ليس هناك رجل بديل » .

ودلفنا الى الغرفة . وفوجئت في أن ارى الرجل البديل داالقمة الاسيوية « الغليق » يقف في نفس المكان الذي وارت فيه مفتشة الترام . وأراد فيكتور ان يتراجع بسرعه ،ولكن نظرى تبعها والرجل البديل وقعا عليه « ورأيت مفارقة غريبة على وجهيهما ، فقد بدت الفتاة سعيدة برؤياه ، بينما بان الفزع على الرجل . ولن يكون في وسعي ان اصف النظرة التي القاها على صديقي.

وقال فيكتور شيء من التحادل .. مساء الخير .

وردت نينا وقد شعشعت قولها بنظره حانية عطوف .. اسعدت مساء ... ماذا فقدت اليوم ؟

ولم يرد الرجل البديل على تحيسه فيكتور المهذبة ، بل بادرني قائلا ... أأنت معه ؟ أدر تعال معي الى هنا من فضلك .

ومضى بي الى مكتب آخر — يحمل لافتة كتبت عليها عبارة «المدير» .

وقدم الي مقعدا ثم قال .. اتعرف الضابط جيدا ؟

— طبعا ، انه صديقي .. لقد كنا معا في دورة تدريبية واحدة ..

— اذن ! تعرف ان صديقك هذا قد حرمني من الاكل والنوم ؟

— لا . لا اعرف .

— لقد لقيت المشات بل الالوف في عملي هنا . ولكن هذه هي المرة الاولى التي القى فيها انسانا كصديقك .

وصب قدحا من الماء ووضعه امامي. فاعتذرت بلطف ، وارتشفه وهو يقول .. بعد ان خلع قبعته .. اسمع ان صديقك يأتينا هنا كل يوم . اتفهم ما اقول ؟ انه يصل كل يوم — ويملأ قسيمة من الورق : مبينا انه فقد شيئا. ولقد حطم الرقم القياسي في مدى اسبوعين في الضياع . فلقد اضاع في مختلف حافلات الترام في موسكو خمس مظلات وحقيبتين ، وطربين ، وحافظة، وكلب صيد يسمى «طرزان» .

ماذا ؟ هل اضاع كل هذه الاشياء؟ لا بد أن صديقك خطا من اي نوع .. لفندق الى موسكو منذ أعد قريب ليدخل الكلية الحربية ... وكل ما حمله معه عند مجيئه ، لا يعدو حقيبتين ، هما في أمان عندي ...

— ان قولك هذا ، يزيد الامر تعقيدا وغرابة ، لا سيما وانه ملأ قسائم بكل هذه الاشياء التي ذكرتها لك . ولكن هناك ما هو أهم من هذا . ان الناس يفقدون أشياء أثمن من تلك التي ذكرها صديقك وتعاد كلها الينا . لقد اضاع صراف عشرة الاف روبل مع قوائم الاجور والرواتب ، ولكنها عادتنا كاملة

غير منقوصة . فطلبنا الصراف واعدناها اليه . ليس الموضوع فى الكم وفى كثره مافقده صديقك ، وانما هو فى ان أيا من الاشياء التى فقدها لم تعد الينا ، حتى ولا الكلب . اجل لم نعثر على اية مطلة او حقيبة او طرد . وهذا مستحيل . افهم . انه مستحيل . انظر . انى اعمل هنا منذ امد طويل . ولقد رأيت كثيرا من الاشياء المفقودة ، وقد اعيدت الى مكتبنا أو عاد معظمها . وفى مكنتك ان تستنتج من كل هذا اشياء عدة فى منتهى الاهمية . قارن بين ما كان يفقده الناس فى الماضى ، وما يفقدونه الآن ، وستقودك المقارنة الى نتائج علمية مهمة للغاية . ان ما يعاد الينا اليوم ، اغلى وانمن من كل ماكان يعاد فى الماضى . ولكن نسبة الضياع هبطت ، ولعل مرد ذلك الى ان الحياة باتت اليوم اسهل وافضل من الامس . وباتت مجالات الراحة متاحة لهم ، فهدأت اعصابهم ، ولم يعودوا مشردى الفكر مسلوبى الخواطر . وترتفع نسبة الامانة فى كل يوم عن اليوم الذى سبقه . وفى وسعى ان اقول لك ، ان ٩٨٪ فى المائة من الاشياء التى تضع بضاعها تعود الى اصحابها ، بعد ان تبحث فى طلبهم . وقد تلقينا الوف الرسائل من الناس يشكروننا فيها على عودة مافقدوه .. قل لى هل فقدت شيئا فى حياتك؟ مع الاسف انك لم تفقد . ارجو لك حرب مرة . وستعود الينا تعديونى وتستعيد ما اضعته . أما صديقك هذا ، فامر آخر . لقد اتلف علينا فى هذين الاسبوعين تلك النسبة العالية . ان شعارنا ... كل ما تفقده ، تجده هنا . ولكن صديقك كذب شعارنا . اذ لم نعثر على اى شىء مما فقده . وقد هبطت نسبة الامانة من ٩٨ الى ٧٠ . كم اعنى لو اننا عثرنا له على شىء واحد فقط . ولكننا لم نعثر على اى شىء .. وهنا موضع الشك . قد لا يكون فقد كل هذه الاشياء ! ماذا تظن ؟ ترى ماالذى فقده وما الذى يرجو العثور عليه؟ هل يستطيع ان يخترع كل هذه الاشياء التى فقدها .. حتى الكلب طرزان ؟.

قلت للمدير .. لا ادرى ما الذى فقده فى الايام الاخرى ، ولكننى اعرف ان الملازم اضاع حقيبته اليوم .. لقد اضاعها امامى .. انه نسيها فى حافلة الترام .

ومسح المدير على جبينه بيده وقال متأففا ... اكاد اجن ! ان هذا يعنى ان كل ما ادعاه فى الماضى من ضياع صحيح ؟ الحقائب ، الطرود ، المحفظة ، المظلات ، والكلب لاتعرف انى بدأت افقد ايمانى فى الطبيعة الانسانية . لقد ارتفعت نسبة الامانة ستة بعد ستة ، وشهرا بعد شهر .. وفجأة .. يقع هذا ! الا استطيع ان اصدق الابد من وجود شىء فى الموضوع .. ارجو ان تستدعى صديقك ، وان تظل معه هنا .

وخرجت الى المكتب الخارجى ، فرأيت فيكتور يجلس الى جانب نيفا . كانا يبدوان كالمذنبين عندما ابصرانى ادخل عليهما . وهب فيكتور من مقعده . وقلت له : ان المدير يود ان يراك .

وقالت نيفا ... ادخل اليه ... لا تخش شيئا .. انه لطيف جدا .. والتفتت الى وهى تقول .. الآن فقط،

حدثني فيكتور بكل شيء .. كان يريد ان يحدثني ، في كل مرة ، ولكن القدر ، كان يتدخل عليها ، فيقطع عليه حديثه.

وقلت لها ... ولكنه لم يوضح لي شيئا .. ولا استطيع ان افهم ماذا حدث ..

فصحكت نيفا وهي تقول .. المسألة في منتهى البساطة ..

وقطع عليها كلامها ، رجل وقف الى النافذة ، وقد تدلت لحيته السوداء على ذقنه ، رفع اليها يده يحييها ثم اختفى

وسرعان ما بدا الانشغال على نيفا .. احدث نظر فيما امامها من طرود ، وتقرأ ما كتب عليها ، وتحصي بعض الطرود التي تعثر عليها حائرا .. ثم قالت .. ارايت هذا الرجل العجوز . انه انسان ذكي .. بل انه رمز نجاح هذا المكتب . انه يسير كل شيء . ستة او سبعة طرود في كل يوم . انه يشاهدها عامدا متعمدا ، ويضع على كل طرد منها علامة خاصة .. انها احرف : « ال . او . بي » .. اي .. « اصبعها قصدا » انه يعمل في مزرعة تعاونية . وهو يقيم مع ولده الذي يعيش على مقربة منها . والعجوز مولع بالتحوال ... فهو يمضي الى هنا والى هناك ، مبتاعا كل ما يراه ضروريا لاسرته ومزرعته. وله ثمانية عشر حفيدا .. انهم يؤلفون فرقة كاملة .. »

فقلت لنيفا .. ولكن ما شان مكتب الاشياء المفقودة بكل هذا ؟

ـ انه يجعل منا مكتبا لنقل كل ما يشتريه . فهو لا يريد ان يحمل بنفسه الى منزله كل ما يبتاعه ... افهمت ؟ هناك حوانيت ليست لديها اجهزة خاصة بنقل المبتاعات الى البيوت، وقد ابتكر الرجل طريقته . فهو يبتاع ما يريد ثم يذهب الى محطة الترام او الباص ويسأل القائمين عليها .. اهناك من فقد شيئا ؟ فيرد عليه هؤلاء بالنفي. ويسلم ما يحمله الى المحطة بعد ان يدون اوصافها في دفتره ، واين سلمها ، ولمن سلمها ، وتصل مشترواته الينا بعد وقت قصير . ولما كان يعيش على مقربة منا ، فانه يأتي بزمرة من احفاده ، فيحملهم هذه المشروات ، ويعود الى منزله ، سعيدا مطمئنا . وفي كل مرة يأتي الى معذرا ويقول .. « لن انسى شيئا آخر ، مرة اخرى . اغفر لي ارجوك » ... هل رايته قبل قليل وهو يشير الي .. انه في طريقه الى منزله .. وسيأتي مع مجموعة من احفاده بعد قليل .

وانصت نيفا فرأى طرود الرجل .. وعادت الى مكانها . وارهفت سمعها، تود لو سمعت ما يدور من حديث في غرفة المدير . لكن الحديث كان هادئا، وكان من المتعذر عليها ان تسمع شيئا منه .

ورحت اسألها.. « ولكن كيف فسر لك صديقي الضابط، موضوع ما اضاعه طيلة هذه الايام ؟

وابتسمت نيفا وهي تقول .. « انه لم يضيع شيئا على الاطلاق . رآني صدفة وتبعني الى هنا .. وجاء المدير ... واعمل فيكتور فكره بسرعة ، لعله يعثر على سبب يبرر وجوده ، فادعى انه اضاع مظلة . وتكرر المطر في اليوم

التالى . جاء يريد ان يراني ، فوجد المدير معى ، وتظاهر بانه فقد شيئا آخر . ولم اكن اعرف شيئا عن سبب مجيئه . حقا لقد شعرت بان هناك شيئا من الغرابة ، ولكنني لم استطع أن احسه لو انني عرفت تطلعت اليه الا يخترع مفقودات جديدة ، وان يكتفي بالسؤال عن الاشياء السابقة . ولو حدث هذا ، لسارت الامور سيرا طبيعيا . اما اليوم . فنحن مدينان لك . لقد شغلت المدير برهة من الوقت ، استغلها فيكتور في ان يحدثني بما يريد ..

واحمر وجه بيبا خجلا .. وفهمت بالطبع ما حدثها صديقي به .

وسرعان ماذهب الينا فيكتور والمدير في المكتب ، وقد بانت على محياهما علامات الارتياح .

وقال الرجل الدين .. « لقد عادت الي الامانة الى وضعها الصحيح .. المبلغ ما زال ، وسنعثر عليه هنا ! »

ومضى فيكتور الى بيبا ، وهمس في اذنها شيئا لم اسمعه . وفي تلك اللحظة ، ظهر الرجل المحور ذو اللحية السوداء في باب المكتب ، ومعه نفر من العلمان والفتيات من مختلف الاعمار . انه العدد الذكي مع احفاده . وخرجت مع فيكتور .

وبادرني صديقي قائلا ، ونحن نسير في الشارع .. ما رأيك في بيبا ؟ هل اعجبتك ؟ انها فتاة رائعة ... انها الشيء الذي كنت احلم به دائما .. اما وقد استقامت الامور الآن ، فقد بات في وسعي ان امضي الى هناك في اي وقت ، دون ان احس باي ضيق او خجل » .

ولم ار فيكتور طيلة الاسابيع الثلاثة التالية ، فقد كان مشغولا جدا في كليته الجزيرة . ولكني حدث في امسية ليلة داكنة من شهر مايو ، ان التقيت صدفة في الشارع بمدير المكتب .. ورايت في ملامحه علائم الاسى والحزن .

وقلت لصديقي .. وماذا حدث بالجهينة التي اصمتها اليوم؟ هل ملأت قمة باوصافها ؟.

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟.. آه حقا

اليوم .. طبعا .. حسنا - لا بأس ، سأرى لعبا هذا المساء ، وسأحدثها عنها » .

وقلت له .. ماذا دهاك .. هل عادت الارقام الى الهبوط ؟ او هل طرأ شيء على قسمة الامانة ؟

ـ لا . كل شيء على ما يرام في موضوع الزواجة . وكيف حال صديقك الملازم ، بطل الصاع ؟ انه بارد ... ولكن ما يضايقني اليوم امر آخر .. مازال هناك اناس لا يؤمنون بامانة الآخرين .. انهم لا يحاولون استعادة الاشياء التي يضيعونها .. انهم مازالوا يتفكيرهم ، يعيشون في الماضي السحيق .. اسمع مني هذه القصة . لقد انقضى اكثر من شهر كامل ، وعندنا حقيبة تحمل حرفين « ف ـ ا س » . لقد عثر عليها في حافلة ترام . والغريب ان صاحبها لا يأتي ليسأل عنها . لا ريب في انه انسان عجوز ، من طراز «توماس الكثير الشكوك » .. ما الذي يضحكك؟

ـ اظن انني اعرف صاحب هذه الحقيبة ؟.. انها بنية اللون اليس كذلك ، وعليها حرفان من القصة ؟

ـ اجل .. انها كما تقول .. ولكن ..

ـ لا بأس ، سأبعث اليك بصاحبها في الغد ..

ورمقني الرجل بنظرة لا تخلو من العطف ، وهو يقول .. « حقا ان لك اصدقاء في منتهى الغرابة . احدهم يأتينا يوميا طيلة اسبوعين ، وفي كل يوم اكذوبة جديدة .. وآخر ، اسوأ من ذلك . كثير النسيان والشكوك ... ولكن لا تستأمن قولي . فانا اكن لك كل تقدير . حقا انني اميل اليك .. اصبح ما شئت ، وتعال الى فستجد كل ما اصنعه . سيسعدني ان اراك دائما.

وتحدثت هاتفا الى فيكتور ، وذكرته بحقيبته الضائعة .

والتقيت بليها في اليوم التالي . كانت تعود الى بيتها من عملها ، وقد حملت حقيبة عليها حرفا « ف . اس.» لقد وقعت على وصل الاستلام في سجل الاشياء الضائعة والمسلمة الى اصحابها.

وكان لها كل الحق في توقيع هذا الوصل . اذ انها اعادت الحقيبة... الى زوجها .. فيكتور .